

## تقديم

تعتبر رحلة الرحالة العثماني أوليا جلبي (توفى عام ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م) نموذجاً فريداً غير مسبوق في تاريخ الثقافة الإسلامية. إن فوائدها كثيرة خاصة في وصف البلدان، لقد تفوق أوليا جلبي الذي جاب ٣٣ دولة من الدول القائمة آنذاك في ثلاث قارات: أوروبا، وآسيا، وإفريقيا. وتحتاج هذه الدول معرفة هذه الرحلة لتكون أساساً في تاريخها. فقد اهتم أوليا جلبي في رحلته بوصف النظام الإداري في كل مكان ذهب إليه بدقة وتفصيل وقدم لنا معلومات عن مالية كل بلد يذهب إليه، وأخلاق أهل البلد ومدى قربهم أو بعدهم عن التدين. وصف المساجد بدقة وكذلك الكنائس والأديرة والمعابد اليهودية بإحصائيات دقيقة مع إيراد تواريخها. هذه الإحصائيات التي قدمها لأوليا جلبي تشد الانتباه وتخدم علماء الاجتماع وعلماء السكان أيضاً. كما تعد رحلة أوليا جلبي مصدراً هاماً لدراسة الجوانب التاريخية والحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر العثمانية يعتمد عليها كل من أراد دراسة مصر في القرن السابع عشر.

حدثني أستاذي بكير كوتوك أوغلو الأستاذ بجامعة استانبول، قبل ما يزيد على خمس وعشرين سنة، أنه كون لجنة لتحقيق رحلة أوليا جلبي، ففيها نقص كبير، وتواريخ متروكة، وفراغات، إذ مات الرحالة قبل أن يكتبها. وطلب بكير بك مني أن أشارك في هذه اللجنة لتحقيق الجزء الخاص بمصر في الرحلة. وحدثته عن ضرورة ترجمتها إلى العربية فرأى أن تحقق في لغتها الأصلية وتستكمل علمياً ثم يُنظر في أمر ترجمتها. ولم يتم مشروع لجنة التحقيق هذه.

ولأن ترجمة الرحلة إلى اللغة العربية ضرورة، فقد توفر عليها، أسماء كبارنا، ذلك الجيل القيم: محمد علي عوني وقيل إنه ترجمها وسلمها إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

ليراجعها وراجع بعضها وترك أغلبها ليراجعها الدكتور أحمد السعيد وعدّل هذا فيها وبدّل فوجد نفسه في النهاية أمام ترجمة جديدة من صنعه ومن صياغته. وقيل إنه لم يسلمها لوزارة الثقافة المصرية، بل عهد بها إلى أحد أبنائه الأساتذة. كما قام كاتب هذا البحث بتكوين لجنة من الأساتذة الشبان المتخصصين في اللغة التركية ليرجموا هذه الرحلة تحت إشرافي وكنت وقتها رئيسا لوحدة البحوث بمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٨٢م، لكن لم يتم أحد من هذه اللجنة عملها إلا الدكتورة ماجدة مخلوف، وكانت وقتها مدرسا مساعدا.

وعندما تولينا - أي كاتب هذه السطور - رئاسة المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان سنة ١٩٩٠م، عهدنا إلى أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري (عليه رحمة الله) بترجمة هذا العمل - أي رحلة أوليا جلبي، على ما في أصله العثماني من نقص، وعهدنا إلى مجموعة من الباحثين الشبان بمساعدته. وأنفق المركز على هذه الترجمة الشيء الكثير. وقد تطوعت الدكتورة ماجدة مخلوف بمراجعتها وإكمال نواقصها. ولم نستطع نشر هذه الترجمة فسي حينها لأسباب متعددة رغم أنه لم يكن لنا أى مطالب مادية فيها، إلى أن اضطلعت دار الآفاق العربية بنشر هذه النسخة الورقية من الترجمة. على كل حال، يظل أوليا جلبي، رغم كل هذا، قمة أدب الرحلات عند المسلمين.

### أوليا جلبي: حياته ومسار رحلته

تعتمد معرفتنا حياة أوليا جلبي. على ما دوّنه في كتابه الضخم ذي المجلدات العشر الذي سجل فيه رحلته.

غير معروف لنا اسمه الكامل والحقيقي، وربما يكون اسم أوليا جلبي نسبة إلى معلمه أوليا محمد أفندي. ارتحل أوليا جلبي داخل كل البلاد العثمانية وخارجها في رحلة استغرقت حوالي الأربعين عاما. وقد سجل رحلته هذه والتي تعتبر نموذجا فريداً غير مسبوق في تاريخ الثقافة التركية ومازالت هذه الرحلة هامة حتى يومنا هذا.

ومن خلال ما جاء في هذه الرحلة من معلومات، نقول أن أوليا جلبي ولد في العاشر من المحرم عام ١٠٢٠هـ - الخامس والعشرين م مارس عام ١٦١١، في حي (اون قايا) أحد أحياء استانبول. كان والده - كما ذكر في بعض المواضع من رحلته - يدعي درويش محمد أغا، ابن درويش محمد ظلي أفندي، وكان هذا الأخير صانع ذهب. (قيومجي) في القصر السلطاني. وقد مال أوليا جلبي إلى المبالغة كثيرا في ما ذكره من أخبار في ثنايا رحلته. ومن هذه (المبالغات) أنه كان يوجد في بيوتهم عند مولده حوالي سبعين من العلماء والسيوخ، وقد تمكن بمددهم المعنوي أن ينجو بيسر وسهولة من كل ما صادفه في حياته من آلام وصعاب. وقد دون هذا كله ليذكر أن والده كان رجلا معروفا، وما يؤكد هذا التصور، ما ذكره من أن والده اشترك في فتح جزيرة قبرص، وأنه قد مفتاح ماغوسا. كما أنه صنع بنفسه ميزاب الكعبة في زمن السلطان أحمد الأول، وحمله إلى الحجاز باعتباره أمينا للصرة. واشترك في أعمال زخرفة باب ونوافذ مسجد السلطان أحمد، وأنه حظى بتقدير السلطان أحمد الأول لهذا السبب فرفع مكانته حتى أصبح (مصاحبا للسلطان). أما ما ذكره أوليا جلبي عن أجداده، فلا يعدو أن يكون معلومات غير منتظمة. ويتصل نسب عائلته بأبناء كرميان، ويذكر أنه ينحدر من نسل الشيخ أحمد يسوي. وأن أحد أجداده وكان يدعي ياووز أر، كان بيرقدار السلطان الفاتح. وأن ياووز أر هذا قد ابنتي من مال الغزو مائة دكان أوقفها كلها، وكذلك البيت الذي ولد فيه أوليا جلبي.

ذكر أوليا جلبي أن أجداده عاشوا في حي زره كان في كوتاهية. ثم جاءوا بعد الفتح إلى استانبول واستقروا فيها. وكانت عائلته تمتلك - علاوة على البيوت التي تمتلكها في كوتاهية-، منزلا في حي اينه لك، وآخر في بورصه، وفي مغنيسيا، ومزرعة في صنديقا. وبعد استقرار عائلته في استانبول، امتلكت بيتين ودكانا في (اون قابان). وفي مدار حديث أوليا جلبي عن هذه الممتلكات، يذكر أن له حديقة في قاضي كوي. أما أمه فكانت من الأباطه (الأبخار)، وذكر أنه تربطه صلة قرابة من ناحية أمه بكل من ملك أحمد باشا، ودفتردار زاده محمد، وإبشير مصطفى باشا. وأن له أخ يدعى

محمود، وأخت اسمها إينال، وقد تزوجت أخته هذه من الياس باشا الباليكسرى الذي تمرد في زمن السلطان مراد الرابع.

تلقي أوليا جلبي تعليماً جيداً، وواظب على تلقي العلم من خلال المدرسة لمدة سبع سنوات وذلك في مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي. وانكب على حفظ القرآن على يد أستاذه أوليا محمد أفندي. كما تعلم فن الخط على يد والده، ثم انتسب إلى القصر وواصل تعليمه داخل الأندرون. كما تعلم الموسيقى بسبب جمال صوته. واستعان في هذا بدرويش عمر أفندي واستفاد منه. وبعد فترة، قدمه إبراهيم أفندي الروزنامجي، والخطاط حسن باشا، إلى السلطان مراد الرابع، وفي هذه المقابلة رأى وللمرة الأولى «أمير كونه خان». وصار أوليا جلبي المستول عن الكيلار الخاص بأمر من السلطان. وهناك أتم تعليمه وتلقى دروساً في الخط والموسيقى والنحو والتجويد، وغير ذلك من المعارف.

وحسب قبول أوليا جلبي نفسه، أنه كان كثير التواجد في مجلس السلطان مراد الرابع، وكان يقص عليه اللطائف. وكان السلطان يستدعيه لمجلسه إذا ما اعتراه الضيق. ولاشك أن الجو العام داخل القصر، لعب دوراً هاماً وإلى حد كبير في زيادة قدرته الأدبية، ومعارفه، وقدرته على الملاحظة. وكان أوليا جلبي يطمح إلى أن يقضي حياته في التعلم، ولهذا ترك عمله في الأندرون، بعد أربع سنوات فقط قضاها ضمن السباهية براتب قدره أربعون أقرجه.

واعتملت لدى أوليا جلبي الرغبة في الرحلة للمرة الأولى، بسبب أحاديث والده التي كان يتكلم فيها عن عمله لدى الباشوات منذ زمن القانوني حتى زمن السلطان إبراهيم ووقائع الرحلات المختلفة التي استمع إليها من أصدقاء والده. ولاشك أن هذه الحكايات حركت لدى أوليا جلبي الرغبة في السفر. ويذكر أوليا جلبي في كتابه، أن قيامه بهذه الرحلات، كان بسبب رؤيا رآها في منامه، في ليلة عاشوراء من شهر المحرم سنة ١٠٤٠هـ (١٩ أغسطس ١٦٣٠) وفيها رأى الرسول عليه الصلاة والسلام في جماعة في مسجد أخى جلبي بجوار يمش اسكله سي في استانبول، فاعتراه الانفعال

وهم يقبل يد رسول الله، وبدلاً من أن يقول الشفاعة يارسول الله، قال من فرط الانفعال «السياسة يارسول الله» فتبسم له النبي وبشره بالشفاعة والسياسة والزيارة (الحج) ودعا له الصحابة في هذه الجماعة، وتمني له سعد بن أبي وقاص أن يكتب ما يراه. وقال له الشيخ عبد الله دده شيخ «المولوي خانة» في حي «قاسم باشا»، في تفسير هذه الرؤيا، «اتب نصيحة سعد بن أبي وقاص، وابدأ بالكتابة عن استانبول». بناء على ذلك قرر التجول في المدينة التي ولد وعاش فيها أولاً، وكتابة كل ما يراه. تجول أولياً جليبي في استانبول وطاف بأحيائها واحدا تلو الآخر، وجالس الناس في المجالس على اختلافها، وفي المقاهي والحانات، وجمع المعلومات عنها. وكانت أول رحلة له خارج استانبول في عام ١٦٤٠، وكانت إلى بورصة. وقد ذهب إليها بغير إذن من والده، ولدى عودته منها، أذن له والده بالرحلة مرة أخرى، وأوصاه بكتابتها. وربما تمكن أولياء جليبي أثناء تجواله في استانبول، من القيام برحلات إلى كوتاهية ومغنيسيا، وإزميد، لكنها كانت رحلات قصيرة بسبب ارتباطه بعائلته.

كانت أول رحلة لأولياً جليبي إلى بلاد بعيدة، ظفر بها من خلال وجوده مع كته نجبي عمر باشا والي طرابزون. فقد ذهب أولياً في معية الباشا إلى هناك عن طريق البحر، ومنها توجه إلى عسابة. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة التي قادها حسين باشا لاسترداد قلعة آزاق سنة ١٦٤١م. ولم تسفر الحملة عن شيء فتوجه إلى القرم وحل ضيفاً على بهادر خان. وقطع الشتاء في باغجه سراي. وفي الربيع. اشترك في فتح الآزاق، ثم رجع من القرم إلى استانبول عن طريق البحر. وتعرضت المركب التي يركبها لعاصفة قوية وكادت أن تغرق. وبعد رجوعه إلى استانبول توقف عن الرحلات لمدة أربع سنوات وربما كان هذا بسبب الخوف. ثم خرج للرحلة مرة أخرى في عام ١٦٤٥. وفي هذه المرة اشترك في الحملة على كريت مع يوسف باشا. وشاهد فتح قلعة قانيه، ثم عادة إلي استانبول. وفي العام التالي رافق دفتردار زاده محمد باشا إلى أرضروم لدى تعيينه أمير أمراء عليها، وصاحبه أولياً باعتباره مؤذن ومصاحب له. وصار ضمن رجاله. وأثناء الرحلة زار بعض مدن الأناضول، واشترك في حملته على شوشك،

ورافق رسول الصفويين لدى عودته إلى تبريز. وتجهول في اذربيجان وكردستان، وطوّف بأنحاء باكو وتفليس وروان وكوموش خانة وطورطوف، وشارك في الحملات على كردستان. ثم نُقل دفتر زاده محمد أفندي الذي أقام علاقة مع الباشوات التمرديين في تلك القرى، من عمله هذا وعُين في قارص، لكنه لم يهذب إلى عمله الجديد، وعندما خرج للعودة إلى استانبول، كلف أوليا جلبي بنقل رسائله أثناء قيام أوليا جلبي بوظيفته هذه، تعرف برؤساء الجلالية مثل قره حيدر أوغلو ومد وقاطرجي أوغلو محمد. كما عاصر تمرد واردار على باشا، ويفصح في كتابه مكانا للحديث عن هزيمته على يد بشير مصطفى باشا، ومقتله. (سياحنامه ج ٢، ص ٤٤٨-٤٥٢).

ثم ذهب أوليا جلبي في شهر أغسطس من عام ١٦٤٨ إلى الشام بصحبة مرتضى باشا لدى تعيينه بكلر بك هناك، ومن هناك تمكن نقل مرتضى باشا من الشام إلى سيواس، ذهب معه أوليا جلبي إلى سيواس، وتحايل بوسائل شتى حتى تمكن من السياحة في مدن وسط وشرق الأناضول، ثم رجع إلى استانبول سنة ١٦٥٠.

وفي العام نفسه، وأثناء وجوده في استانبول اعتلى ملك محمد باشا منصب الصدارة وكانت تربط بينه وبين أوليا جلبي صلة قرابة ومعرفة وطيدة، فكان ذلك واحدة من أهم نقاط التحول في حياة أوليا جلبي. فصار واحدا من أقرب الرجال إلى الصدر الأعظم. لم يتردد في أن يسجل صراحة الوجه الآخر للأحداث التي شاهدها من خلال موقعه هذا. وسجل في كتابه أدوارهم في التمردات والمظالم التي وقعت. وكان قيام ملك محمد باشا بسك عملة مغشوشة للخروج من الأزمة المالية، سببا في تمرد أصحاب الحرف بتحريض أغوات الانكشارية، وبناء عليه تم عزله من الصدارة، وتم تعيينه بكلر بك في أوزي، مما أتاح السبيل أمام أوليا جلبي للسياحة مرة أخرى. فذهب برفقة ملك باشا إلى هناك. وخلال ذلك شاهد روسجق وسلتره، وبابا داغي. واشترك في أعمال وكتابة وتحرير القرى والقصبات التي هناك. كما كان برفقة ملك أحمد باشا أثناء توليه منصب بكلر بك الروملي. ولكنه رجع إلى استانبول في يوليو ١٦٥٣ بعد عزل الباشا. وظل في استانبول لفترة طويلة. وذات مرة حمل رسالة إلى ابشير مصطفى باشا في

قونيه. ثم عاد أوليا جلبي ليطوف مرة ثانية في دروب الأناضول بعد تكليف ملك أحمد باشا بمنصب بكلكر بك، وان. وأثناء هذه الرحلة تمكن من التجول في كثير من الأماكن في شرق الأناضول كما تجول في أنحاء إيران وبغداد من خلال مهام مختلفة قام بها. عقب هذا، ذهب مع ملك أحمد باشا إل أوزي مرة أخرى بمناسبة تكليفه بمنصب بكلكر بك. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة المتجهة إلى راقوجزي، كما اشترك أيضا في الحملات التي شنها محمد كيراي الرابع، خان القرم ضد الروس والقازاق.

وبعد أن أقام فترة في استانبول، خرج في شهر ديسمبر من عام ١٦٥٧، وتجول في بوسره وجناق قلعه وغالبيولي. وفي عام ١٦٥٩، أتاحت له الفرصة للسياحة مرة أخرى، وفي هذه المرة انضم إلى القافلة المتجهة إلى إقليم ستيفانيتزا من البغدان. واشترك في هجمات متعددة مع فرسان القرم وفي التحركات التي تمت لتأديب ميهنيان الثالث أمير الأفلاق المتمرد. وعقب عودته إلى أدرنه مباشرة، اشترك في حملة كوسه على باشا إلى واراد. وبعد هذا التحق مرة أخرى بملك أحمد باشا أمير أمراء البوسنة، وطاف بولاية البوسنة. واشترك في كل التحركات العسكرية التي تمت في هذا الإقليم. ثم ذهب إلى صوفيا أيضا مع ملك أحمد باشا، وتجول في الروملي بسبب تكليفه بمهمة جمع الضرائب. وفي هذه الفترة، اشترك في حملة كوسه على باشا على الإردل في صحراء طمشوار. (١٦٦١). وهناك، جال في الإردل مع جنود القرم. ثم ذهب إلى بلجراد لقضاء فصل الشتاء وعقب ذلك كُلف بتحصيل المال في الأرنأوط (البانيا) عقب عودته إلى استانبول، كان أوليا جلبي يتحين الفرص للقيام بسياحة جديدة فاشترك في حملة فاضل أحمد باشا على النمسا في عام ١٦٦٣. واشترك في كل مراحل هذه الحملة. وعقب فتح قلعة أويوار، - وحسب روايته - تجول في ديار كثيرة من بوهيميا حتى بلغ السويد وهولندا. ولدى عودته إلى بلغراد، حمل رسالة إلى سوخ راب محمد باشا في الهرسك. وهناك اشترك في التحركات التي جرت على طول حدود البندقية. وبعد ذلك رجع إلى المجر، وحضر معركة رعب. وقد قدم معلومات مستفيضة عن هذه المعركة. (سياحته، ج٧، ص ٨١-١٢٠) وفي عام ١٦٦٤، ذهب إلى فيينا في

صحبة السفير قره محمد باشا وطاف معه على القلاع التي تم فتحها حديثا وذلك عقب معاهدة وارسوار، وكتب أوليا جلبي أنه التقى في فيينا بالإمبراطور لسيوبويد الأول، والقائد مونته جوجوللي، وأنه ذهب إلى الدانمارك وهولند (١) وبراند نبرج بإذن من الإمبراطور، وقال أنه طاف ببلاد كثيرة، لكن هذا أمر مشكوك في صحته.

وبعد فترة ذهب أوليا إلى القوقاز سالكا طريق القرم، فوصل حتى شواطئ الفولجا، وقال أنه بعد أن طاف بهذه الأماكن انضم إلى قافلة ورجع إلى قلعة آزاق، ثم ذهب من كفه إلى باغجه سراي، واشترك في بعض الحملات التي قام بها عادل كيراي. وفي مايو ١٦٦٨، رجع أوليا إلى استانبول. وفي شهر ديسمبر من العام نفسه طاف بمدن الروملي مثل أدرنه وكومولجنه وسلانك. ثم ركب البحر من الأناضول إلى كريت وفي تلك الأثناء كانت قلعة قنديه في كريت مازالت تحت الحصار، فشهد بنفسه كل صفحات هذه الحصار، وسجل أحداثه في رحلته، وكتب «فتحنامه قنديه» وتحول أوليا في كريت وقدم معلومات مفصلة عنها. ثم رجع من هناك إلى المورة واشترك في التنكيل بتمرد «فانبوت ثم ذهب إلى بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) وطارق بها، ثم رجع إلى استانبول في ديسمبر عام ١٦٧٠. ظل أوليا في استانبول بضع شهور، ثم قرر أن يؤدي فريضة الحج الذي كان يتحرق شوقا إليه منذ أمد، فقرر الارتحال مرة أخرى. وارتبط خروجه للرحلة هذه المرة برؤيا رآها في ليلة القدر عقب عودته من زيارة قبر أبو أيوب الأنصاري، فقد رأي في منامه، والده، وشيخه محمد أفندي وأوصياه بالحج فخرج من استانبول لهذه الغاية برفقه صديقه سانلي جلبي، وثلاثة من الرفاق وسبعة من الخدم، وذلك في مايو من سنة ١٦٧١. وكانت هذه الرحلة هي الأولى التي يرتحل فيها في رحلة طويلة بدون أن يلتحق بقافلة، إنما خرج مع مجموعة محدودة من الرجال. لهذا اختلف مساره في الرحلة عن ذي قبل. فقد مر ببورصه وكوتاهية وافيون ومنها إلى إزمير، ومن هناك ذهب إلى جزر صاقيز وسيسام، ثم رجع ثانية إلى غرب الأناضول، فطاف بسواحل أيدين ومنتشا وجزر استان كوي ورودس، وكتب معلومات عنها استفاد فيها من دفتر خانة رودس. (سياحتنامه، ج ٩، ص ٢٥٦). ثم انتقل أوليا من رودس إلى الأناضول،

وزار مدن جنوب الأناضول التي لم يتمكن من زيارتها من قبل، وتجول في اطنه ومرعش وعيتاب وكليس ومنها ذهب إلى سوريا. وفي الشام التحق بقافلة أمير الأمراء حسين باشا وتوجه إلى الحج. وقد سجل في كتابه، على حده، مسار رحلته للحج. وبعد أدائه للفريضة، ذهب إلى مصر. وسنحت له الفرصة وهو في مصر ليطوف بالمنطقة كلها فذهب إلى السودان والحبشة. ولعله خص لهذه الديار الجزء العاشر والأخير من رحلته، والذي كتبه في مصر. وتبين منه أنه قضى في هذه المنطقة مدة تربو على عشر سنوات، وذكر أنه أثناء إقامته في مصر، انعقدت الصداقة بينه وبين الأمير أوبك بك، وقد احتوى الجزء العاشر محصلة هذا. لكن النسخ التي كتبها من هذا الجزء انتقلت إلى استانبول بعد إهدائها إلى الحاج بشير أغا، أغا البنات المشهور في زمن السلطان محمود الأول. ثم انتهي الجزء العاشر من رحلة أوليا جلبي بدون أن يكتمل، لهذا فإن التصور هو وفاة أوليا جلبي قبل أن يضع نهاية كتابه، وليست هناك معلومات مؤكدة عن مكان أو تاريخ وفاته. وقد ذكر جاويد بايصون أنه بناء على المعلومات الواردة في نهايات الجزء العاشر من الرحلة، تكون وفاة أوليا جلبي في حوالي سنة ١٠٩٣-١٦٨٢م (دائر المعارف الإسلامية، ج٤، ص ٤٠٦). لكن هذه المعلومة تم تصحيحها بعد ذلك حيث ومحتمل أنه كان على قيد الحياة عام ١٩٠٥هـ-١٦٨٤م، وأنه أدرك حصار فيينا للمرة الثانية. كما أن هناك أقوال بأن وفاته كانت بعد عودته من مصر إلى استانبول. ويقال أن قبره موجود في مدافن أسرته بجوار قبر (ميت زاده).

ثم يتزوج أوليا جلبي. وتبين من كتابه أنه كان ماهرا في الفروسية، ولعب الجريد، وكان دؤوبا نشيطا، عذب الصحة، له في مجالسه لطائف يتوق الجالسون إلى سماعها، ورغم معرفته الجيدة برجال الدولة في عصره، إلا أنه لم يحرص على المناصب ولم يسع إليها. وأوقف حياته كلها على السياحة. وكان يجد في الوظائف التي شغلها كأن ينقل الرسائل أو يقوم بتحرير (=كتابة) القرى، ويجمع الضرائب عوننا له في القيام بهذه الرحلات، وكان في بعض الأوقات ينضم إلى موكب أحد السفراء ليرتحل ويوجد في هذا فرصة للقيام برحلة مأمونه. وكان ثراء عائلته يؤمن له نفقات رحلاته الطويلة، فكان

يأخذ معه خدامه وعبيده بل وأصدقائه. وكانت العطايا التي يحصل عليها مقابل أداءه بعض الخدمات، والأموال التي تتوفر له من بيع غنائم الحملات التي اشترك فيها كل هذا كان يوفر له مصادر إضافية للمال. كما أن انضمامه إلى بعض الهيئات الرسمية كان يعفيه من نفقات بعض الرحلات.

ومثل ملك أحمد باشا دورا هاما في رحلات أوليا جلبي، سواء أثناء توليه منصب الصدارة أو أثناء شغله وظيفته أمير الأمراء في أوزى والبوسنة والروملي ووان وديار بكر، حيث أن أوليا جلبي لم يفارقه في أي منها. وبذلك تمكن من التجول في مناطق كثيرة من الأناضول والروملي. حتى أنهم وصفوه بلقب «المنسوب إلى ملك أحمد باشا». واكتسب أوليا جلبي من رحلته التي قاربت نصف قرن من الزمان، تجارب ومعارف لانهاية لها. فكان شاعرا وخطاطا، ومزخرفا وعارفا بالموسيقى. وقد أكد مواهبه في مواضع كثيرة. وقد قام بكتابة الخطوط التي على الحرم الهمايوني على النسق القره حصارى. كما أنه عبر في كتابه، عن الانبهار الذي شعر به أمام الكتب المذهبة وذات المنمنمات التي شاهدها في مناطق ترحاله. وكانت له روح رقيقة متصوفة يصف نفسه بأنه «أوليا بلاريا» (أولياي بي ربا) وبسبب تواضعه التف حوله الكثير من الأصدقاء. فضمت حاشيته الولاة والقادة. لكنه لم يتراجع عن توضيح ما لمسه فيهم من نقاط للضعف. ويغلب على أوليا جلبي في كتابته حسن التعبير. أما أسلوبه، يجذب القراء رغم ما يبدو فيه من أخطاء نحوية متناثرة. ونجد فيه بعض الأشكال التي لا تتواءم في فهمها مع لغة الكتابة. وقد أعطى أوليا جلبي أهمية خاصة لأشكال الحديث واللغة بين الناس في الأماكن التي طاف بها. وهو بعبارة البسيطة وتعبيراته الصادقة التي كتبها وكأنه يتكلم، ظهر وكأنه يخاطب بها كل إنسان. وقد رأى بعض الباحثين في سياحتامة هذه أنها مذكرات. وكان أوليا جلبي كثيرا ما يدنو من الأحداث بصورة أخاذة. ولا يتورع عن تقليد من يلتقي بهم من شخصيات. وكان أحيانا يروي حادثة أو خبر مصطنع لكي يجعل الشئ الذي ينقله أكثر إثارة (تلونا). كما يبدو وقد أفسح مكانا للغريب من الوقائع التي لا تتفق مع العقل بغرض جذب اهتمام القارئ. مثال ذلك أن القرية التي يمر

منها الأفيال، تقوم النساء فيها بتوليد الأفيال. والمغامرات التي تقص أنباء الغيب، والأطباء الذين يعالجون الأمراض التي لاعلاج لها، وما شابه ذلك. ويصنف كل هذه الأشياء غير العادية بأسلوبه وشرحه الجميل، حتى أنه يمكن القول إنه اجتهد بهذا النوع من الحكايات التي تثير اهتمام قطاع كبير من الناس، وأن يضيفي على كتابه مسحة شعبية. ودفعته رغبته في أن يترك أثره في الأماكن التي يمر بها- إلى جانب تواضعه- إلى أن يكتب على جدران المنازل «الفاتحة على روح أوليا» فقد كان صاحب دعابة. وحسبما نتبين من كتابه، كان أوليا جلبي يحب أوقات المرح، كما كان صاحب ذوق. ولاشك أنه لهذا تأثير فيما كتبه وذكره من وقائع غريبة ولطائف. وكان أثناء تجوله في كل شبر من استانبول، يخالط رواد المدارس والحانات ورواة المأثورات الشعبية، كما تعرف على أرباب الحرف فيها وصادقهم.

### مسار رحلة أوليا جلبي

تضمن كتاب سياحته أوليا جلبي بمجلدته العشر، الأحداث التي شاهدها أوليا جلبي في الأماكن التي تجول بها، ويعتبر بمثابة كتاب شامل وهام في تاريخ الثقافة التركية. . وهذا الكتاب المعروف باسم سياحته أوليا جلبي، وباسم أوليا جلبي سياحته سسي، تحمل بعض النسخ منه اسم «تاريخ سياح». والجزء الأول منه يصور استانبول، والثاني يصور بورصة وإزميد، وبارطين، وأماصرا، وإبنة بولو، وسينوب، بافرا، وصامصون، وكيره سون، وطرابيزون. كما يقدم معلومات عن كرجستان وديار الأباظه، وحملة كريت وفتح قلعة خانبيه، ودورجه، وبولو، وكردهه، وأماسيا، ونيكسار، وأرضروم، وأرزنجان، وشبنقره وحصار، ومرزيفون، وجوروم. وفي الجزء الثالث يأخذ بالحديث عن اسكيشهر، وليكين، وقونيه، وألوقيشله، وباياص، والإسكندرون، وأنطاكية، وحما، وحمص، والشام، ويافا، وبحر لوط، والرمله، ثم قيصري، وسيواس، وموش، وعرب كير، وخربوط، وبينكول، ومدن برغاز، وبرواودي، وشومنو، هزازجراد، وروسجق، ويراكويي، ونيبولو، ثم يصف أطراف

أوزي، وكستانجه، وباباداغي، وزغره العتيقة، وفلبه، وتاتار بازارجتق، وصوفيا، وجسر مصطفى باشا، وأدرنه. وفي المجلد الرابع يقدم معلومات عن ديار بكر، وماردين، بتليس، وان، ومن إيران رومية وتبريز، وهمدان، وكرمان شاه. في المجلد الخامس يبدأ أوليا جلبي بوصف ما رآه في مساره من إيران إلى بغداد، ومن هناك إلى سعرد، ومروره بطوقاد أثناء عودته إلى استانبول. بالإضافة إلى أنه في هذا المجلد يصف الطريق إلى اوزي، ويصف وارنه، وإسماعيل، وآق كرمان وبندر، وحملة لهستان (بولندا) التي اشترك فيها من هناك، وأوكرانيا، وبروت، كلبورن، ورحلة الأناضول التي خرج فيها مع السلطان محمد الرابع بعد عودته إلى استانبول، والوقائع المتعلقة بأباطه حسن باشا رئيس الجلالين. والأماكن مثل القلعة السلطانية وبوزجعه، غالبولي، وبولاير، وكاشان، والقره، والبوسنه، وإسكوب، ومناستر. وفي المجلد السادس يبدأ أوليا جلبي بذكر الحملة التي خرج فيها إلى الإردل برفقة كوسه على باشا، ويمر ببلاد الصرب، والمجر، ورومانيا. ويتكلم عن المدن التي في هذه البلاد. وفي المجلد السابع، يصف الذهاب إلى فيينا مع سفارة قره محمد باشا، ويصف قانيجه، واستويني، وبلجراد، فيينا وقلاعها، ثم الوصول إلى المجر وبودين، وطمشوار، وولايات الأفلاق والبغدان، والأقوام في ولاية القازاق، والقرم وداغستان، والقوقاز، ولغاتهم، وأعرافهم، وعاداتهم. . وفي المجلد الثامن، ويصف العودة إلى استانبول من الآزاق عبر طريق كفه، وباغجه سراي، وقيل بورون، وآق كرمان وإسماعيل، وبابا داغي، وخاص كوي، وأدرنه وديماطوقه، وكومولجينه، ودراما، وسلانك، مرورا من الزوره وخانيه، كما يتكلم عن ما بعد اشتراكه في فتح قنديه، فيذهب إلى الأناؤوط، ومن هناك يصف العودة إلى استانبول من فوق يانيه وتبه دالن، وبولونيا، ودراج، وإيلباصان، واوهري، ورسنه، ومناستر، اشتيب، وجسر مصطفى باشا وأدرنه. وفي المجلد التاسع، يصف المدن الواقعة على الطريق الطويل الممتد من استانبول إلى مكة والمدينة، وغرب وجنوب الأناضول وسوريا. أما الجزء العاشر فكله خاص بمصر، وتناول فيه الأقاليم القريبة من مصر، وشواطئ النيل، والسودان وبلاد الحبشة.

## مسار رحلة أوليا جلبي في مصر، كما وردت في رحلته

القاهرة - شبرا - بطن البقر - قنطرة الملك الطاهر - مصر خيم - عفريت - تفاحية  
- مبهوم - شبرتين - زفتي - ميت غمر - سرسنه - منوف - سرسنه - طوخ النصارى  
- طنطا - محلة مرحوم - ابيار - نهاريه - بلدة القبيلة - بلدة الفرزدق - محلة صال  
(محلة قلبية) - محلة أبو على - بلدة المجنون - دسوق - مرقص - رحمانية - داودية  
- سنهور - دمنهور - حوش عيسى - مدينة العقاب - دمنهور - جبل قاسم بك -  
بصطيره - رزقون - زاوية الجنزال - ناصرية - سنتاويه - برسك - نحل - أبو خضر -  
قراوي - قافلة - دشوش - بُرْكه - رويجب - لقون - بُرْكه - جريون - مولُصفي -  
اقريش البستلقون البيضا - جنان - الإسكندرية - أبوقير - ادكو - رشيد - الإسكندرية  
- عزبة المغدي - هدية - محلة الأمير - برمبال ديه - ادفينا - محلة مطويس -  
جمشيره - فزاده - ديروط - سنديان - عاطف - فوه - شرف - شرمباي - مالك -  
شموخزاد رحمانية - إبراهيم الدسوقي - أبو على - مركز - دية البير - شبراخيش -  
شبريش - ميت جناح - كفر جديد - نقله - فرزدق - اشلميه - طاهره - كفر الزيات  
- شبوج - سلمون - كفر النحا - كفر جديد - أبو أحمد - البحيرة - زايره - طنوب  
- طيرنه - علقمة أبو الجاوي - طماليه - جزى - طراه - زاوية - أبو نشانه - إشمون  
- جريس - كفر شركس - قوطه - أم دينار - شيراوي - دراري - بارودخانه - شبرا -  
ألورآق - امبابه - بولاق - العزبه - عزبة الحاج - البرلس - بلطيم - السنانية - دمياط  
- تينه - فَرُص فارسكور - كفر السليمانية - شرباص - ميت أبو غالب - رأس الخليج  
- أبو عبد الله - طهرية - بُشاط - دُنْجِي - مساط - شربين - بدوي - بترا - درمبال  
- دياسط - خياريه - قاش - المنصورة - المنزله - طلخا - الشيخ رمضان - ميت  
- خميس - ميت الغرقى - ميت ويش - ميت عماس - ميت نورسي - ميت المنيا -  
سمنهود - أبو على قيطاس - أغا- محلة الكبير (المحلة الكبرى) - سمنود - أبو  
الحارث - أبوصير - ميت برقع - بريه - المنظره - ميت بدر - ميت دميس - ميت  
- أنسا - سنباط - شرنجي - دنهور - غمار - رفتي - المعصرة - غريب - صهريج -

مسيد - صيد - عز - هارون - صفين - تغني - سندي - بري - أشمون - مويش - ملاو - بنها - بطاي - رمبلي - أبو الطوافتي - العطار - سيدي - خصر - عطف - طُخْلا (طلخا) - جيوخ (طوخ) - عفيف - طنط - برشمس - برسوم - أبو شعره - قلوبية - شبرا - شروي - شبرا - القاهرة - البساتين - المعدية - مُحنط - قهوه خانه - دلي حسين باشا - الزاوية - كوم الدير - ميمونه بني سويف - الفشن - أبو جرجو - كليس (قيس) - سمنود سعيد - المنيا أشمونين - ملاوي - دار شيد - صنبو - منفلوط - أسيوط - شطوب - جبل الطير (طيلمان) - أبو تيج - الشيخ بن عابد - طما - الجزيرة - سوهاج - المنشية - جرجا - خالد - جمادي - مزار - بلايش - فوحة - على - قنا - القصير - أنبوت - قوص - شمونين - طوت - سفارس - أم على - حجيزه ردسي - شيبكه - سلسلة - إدفو - كوم سياه - كوم امبو - سنباص - أسوان - الشلال الأول - علوي - باب النوبه - قلعة إريب - كنوزين - مهرية - كلابشه - أبوخور - سنيال - قشطامينه - كورد - وادي العرب - أزرق - إبريم - وادي حلفا - إبريم - سبع - كنوز - طمانيس - رقبه - كرخ عرباني - حمام فرعون - باجه - إدفو - حجيزه - جعفري - كلخ - فرشوط - سمنهو - برديس - أسيوط - هرکه - قلمون - الواح - البهنسا - لاحون - الهوارة - الفيوم - كاميا - خان القهوة - أطفیح - الجزيرة - القاهرة - الإسكندرية - القاهرة - سبيل علام - المطرية - عين شمس الخانكة - مشيره - دراعم بابيس - رني - قرين - ستاره - الصالحية - قرين - على - القاهرة - الإسكندرية .

### مصادر رحلة أوليا جلبي

يقول أوليا جلبي في مقدمة رحلته في مصر :

«بينما كنت أبحث عن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم، وتلك القصور العالية

رجعت إلى مالا يحده الحصر من التواريخ القيمة، وهذا بيان بعناوينها:

١- تاريخ المقريزي وهو كتاب عظيم مشهود له بصحته التاريخية، وهو مستخدم من

كتب قبطية وسريانية، ودهلوية ومغولية ولائينية ويونانية ويتقبله الخاص والعام بقبول حسن. ٢- تاريخ ابن جرير الطبري صاحب التفسير القديم وهو تاريخ نفيس. ٣- تاريخ الشيخ الإمام السيوطي، وهو تاريخ له ماله من عظيم قيمته. ٤- تاريخ صابئة. ٥- كتاب فتوحات مصر لابن عبد الحكم. ٦- كتاب فضائل مصر لابن الكندي. ٧- كتاب ابن رولاق (فضائل مصر وأخبارها). ٨- كتاب خطط القضاة. ٩- كتاب إيقاظ المتففل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب الزبيري. ١٠- كتاب مناهج الفكر ومنهج العبر. ١١- كتاب عون عنوان السير. ١٢- كتاب المسالك لابن فضل الله. ١٣- كتاب الإصابة في معرفة الصحابة. ١٤- كتاب الرجال العشرة للحسيني. ١٥- كتاب طبقات الحفاظ للذهبي. ١٦- كتاب طبقات الشافعية للسبكي. ١٧- كتاب طبقات المالكية لابن فرحون. ١٨- كتاب طبقات الحنفية لابن دقماق. ١٩- كتاب مرآة الزمان لابن الجوزي. ٢٠- كتاب البداية والنهاية لابن كثير. ٢١- كتاب إنباء الغمر بإنباء العمر لابن حجر. ٢٢- كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. ٢٣- كتاب السكردان لابن حجلة. ٢٤- كتاب سجع النهرين في أوصاف نهر النيل. ٢٥- كتاب ثمار الأوراق لابن حجة. ٢٦- كتاب تواريخ الشهاب جلبي ترجمة لكتاب حسن المحاضرة للشيخ السيوطي. ٢٧- تاريخ محمد جلبي.

ثم يقول أوليا جلبي :

«علاوة على تلك الكتب السالف ذكرها قرأت كثرة من الكتب والدواوين في

مصر.

وهكذا يوضح أوليا جلبي للقارئ الكتب والمصادر التي اطلع عليها قبل زيارته لمصر ثم يوضح أن هناك كتباً أخرى استعان بها وقرأها في مصر.

أما عن طريق تعامل أوليا جلبي مع المصادر فقد اختلفت من مصدر لآخر، حيث أن هناك مصادر مفضلة بالنسبة له اعتمد عليها اعتماداً كبيراً في أغلب فقرات كتابه ولتوضيح ذلك على النحو التالي:

أولاً : يقول أوليا جلبي عن مصادره المفضلة.

«وليعلم من يطلعون عليها (يقصد رحلته) أن ما في رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافية وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوي العقول الراجحة .

ومن أمثلة استعانه بتلك المصادر التي ذكرها يقول :

وبناء على تواريخ اليونان أن مصر أول بلد عربي على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين وهذه المدن الأربعة تشكل السوء الأعظم من العالم .

«وبناء من أمثلة اعتماده على تواريخ الصابئة وهي من المصادر الأساسية له خاصة في فترة التاريخ القديم منذ هبوط آدم، وأخبار وسير أبنائه يقول: «وجاء في تواريخ الصابئة أن إدريس كان له في علم الكتاب اليد الطولي والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما في الوجود من شيء، ويحزر جميع الوقائع في يوميات ويحفظها في جبال الأهرام» .

أيضا اعتمد على تواريخ القبط فقال في إحدى فقراته التي نقلها عن هذه التواريخ وهي خاصة بدعاء سيدنا آدم عليه السلام لمصر يقول أوليا جلبي: «أما دعاؤه لمصر، الذي أخذت ترجمته عن التواريخ القبطية فسوق نكتبه في مجموعتنا تلك . دعاء سيدنا آدم عليه السلام صفى الله في حق مصر بلسان كلام الله العبري «صام اللهم طط زد لم يتم إيما نمي حوز جيرز باشيطا لأن صقله فلازربيا قورتا رربي قورتا بني (مصرع ثاني) شوزم تراكن جملة ملكلرك طرز ولم شريزتنا بكا خذمت اتسنلر .

وعن مصادر في المعلومات الجغرافية كان «بطليموس» هو المفضل له حيث يقول: «وعلى حد بطليموس الحكيم على وجه الأرض مئتا نهر عظيم وأربعة وأربعون ألف عين جارية» .

هذا بالنسبة للتاريخ القديم، والنواحي الجغرافية، أما عن تاريخ مصر الإسلامية فإن أهم المصادر التي اعتمد عليها هو كتاب تاريخ المقرئزي والذي نقل عنه الكثير واستشهد به في كثير من مواضع كتابه، بل ومدحه قائلا:

«وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقرئزي القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية، والقبطية، واليونانية، وكأنه في كثرة سياحاته فيثاغورث وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره

الله بالتوجه إلى الشام، وكان لثيث ولده اسمه (غرياب) وابنه نقراوش، وكان نقراوش هذا متضلعا في جميع العلوم، وقد أحب نقراوش هذا وسماه «مصرايم» وأمره بتعمير مصر ومضى آدم إلى الشام لزراعتها ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون عادروا الديار فرارا من ظلم قابيل . . .»

ويقول أوليا جلبي عن المقرئ في موضوع آخر من كتابه إنه مؤرخ العالم وهذه المبالغة في مدحه إنما لشدة إعجابه به وأخذه عنه فيقول:

«يقول مؤرخ العالم الشيخ المقرئ: إنه لا يخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم».

وهكذا تكرر استشهاد ونقل أوليا جلبي الكثير من تاريخ المقرئ. ومن المصادر التي اطلع عليها أوليا جلبي كتاب تذكرة داود، ويبدو أنه من الكتب التي اطلع عليها في مصر حيث إنه لم يذكره في المصادر التي ذكرها بداية كتابه يقول أوليا جلبي عن عصير العرقسوس: «وقد بذكر داود في تذكرته سبعين فائدة له، ومن أعظم فوائده أنه يظهر المثانة ويذر البول».

ومن المصادر التي اعتمد عليها أوليا جلبي خاصة في ذكر الفتح الإسلامي لمصر كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم وإن كان ما أخذه عنا بن عبد الحكم قليل فهو لم يذكره كما يذكر المقرئ وقد أخذ عنه ما يلي:

وبناء على قول بن عبد الحكم رحمه الله: إن جبل خليل الرحمن في القدس وجبل طور سيناء وجبل ينبع وعرفات وإلي ساحل نهر مراد والرها وحلب وريح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم.

ويبدو أن أوليا جلبي لم يكن ينقل نقلا تاما عن هذه المصادر وإنما كان يصيغ ما يأخذه منها بأسلوبه، فقصة زيارة عمرو بن العاص لمصر في الجاهلية مقارنة بما جاء في رحلة أوليا جلبي فوجدته يتفق في المضمون مع ماجاء في كتابي فتوح مصر لابن عبد الحكم وما جاء في كتاب حسن المحاضرة للسيوطي ولكنها تختلف بعض الشيء في صيغتها كما أنها أكثر اختصارا في رحلة أوليا جلبي.

ومما يؤخذ على أولياء جلبي أن سرده للجزء التاريخي المتعلق بفتح مصر في عهد عمر بن الخطاب يتسم بالسطحية حيث لم يأخذ عن ابن عبد الحكم إلا ما ذكرناه سالفا

مع العلم إن ابن عبد الحكم مرجع المؤرخين القدامى فى كتابه حسن المحاضرة. أيضا لم يحدد المصدر الذى رجع إليه فى الأحداث المتعلقة بهذه الفترة.

ومن المصادر الأخرى التى اطلع عليها وذكرها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى، والذى نقل عنه كثيرا من المعلومات الخاصة بالطوفان ومصر، وأبناء نوح عليه السلام، وكتاب ابن ظهيرة الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة.

أيضا من المصادر التى اطلع عليها وذكرها فى ثنايا كتابه ولم يذكرها فى بداية كتابه عند ذكره للمصادر كتاب مروج الذهب للمسعودى، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وكتاب عبد الوهاب الشعرانى أحد أقطاب الصوفية فى مصر العثمانية، وقد اعتمد أوليا جليبي على كتابه لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار أو ما يعرف بالطبقات الكبرى، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير. أيضا اعتمد على كتب التفسير فاستخدم تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، كما استخدم العديد من كتب الحديث كان أهمها كتاب الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م كذلك صحيح مسلم.

يؤخذ على أوليا جليبي قوله فى كثير من الفقرات التى ينقلها:

وبناء على قول كثير من المؤرخين أو بناء على قول كثير من المفسرين أو أجمع المؤرخون دون تحديد مصدر نقل عنه أو تحديد من هم هؤلاء المؤرخين أو المفسرين والأمثلة على ذلك كثيرة منها. قوله «وهذا ما اجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين»، أيضا قوله «وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين» وفى ص ٢٩ «أجمع المؤرخون على القول الصحيح وهو أن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد عبد وفاة النبي (ﷺ) بثمانية عشر عاما».

وهكذا تكثر هذه المسقولة فى كتابه أوليا جليبي وكان الأفضل أن يذكر اسم كل مصر ينقل عنه.

ورغم ذلك لمجد أوليا جليبي يتميز بتحليل ومناقشة آراء غيره ومقارنة بعضها ببعض فى كثير من مواضع كتابه مثل قوله: «ومن الخطأ قولهم إن الفيوم من ألف يوم، وإن

وفى تفسير قوله تعالى «مثل جنة بربوة» يقول بعض المفسرين إن المقصود بالربوة مصر كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير إن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر».

ويقول فى موضع آخر مناقشا ومفندا آراء بعض المؤرخين:

«قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقرئى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام» وقد أخفاها الله حتى قيل إن جواهر وجدت فى سبيل علام، وقد رأيتها تباع بألف قرش، وبناء على قول بعض المؤرخين إن حديقة إرم بالقرب من دمشق أن أعرابيا أنخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملا مخلدة بمثار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فعلم أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، وقال كثر من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلية مدينة أسوان وقالوا إن حديقة إرم فى مصر على الأرجح» وعن نقده لأراء غيره يقول فى ذكره لمعركة مرج دابق بين السلطان سليم خان العثمانى والسلطان الغورى» ويقول بعض المؤرخين إن الغورى قتل فى هذه المعركة، ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشا. ويؤخذ عليه هنا أنه لم يأت بالأدلة والبراهين التى تؤكد على صحة ما قاله.

ومن أمثلة نقده وتحليله ما جاء بشأن مدينة القسطنطينية: يقول: «ويسمىها القبط القسطنطينية، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى عهد الطوفان، وهى الآن كذلك مدينة عتيقة، والأحجار التى فيها كبيرة كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعا، وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعا، وقد رأها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لايقدر أن يحمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولاعلم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلايتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان

القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض في ذلك لاعلم له ولاخبر لديه عن علم جر الأثقال وليعلم أيضا أن (زحمة الرجال تقلع الجبال).

أما عن مصادر أوليا جلبي الخاص بالإحصاءات والأعداد التي ذكرها في كتابه فيبدو أنه اطلع على سجلات خاصة بذلك وقد ذكر في كثير من مواضع رحلته أنه أخذ هذه الإحصاءات عن ما يسمى بسجلات الغزالي حيث يقول:

«بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالي عن مصر أم الدنيا ففي مصر ٧٤٠ حيا للمسلمين وفيها ٧٨ قصرا لسلطين السلف وأن اللسان ليعجز عن وصف كل منها فعلى شط بركة بركة الفيل قصر السلطان قايتباي وفي قلعة الكباش قصر السلطان جاولي وأسفله قصر محمد بك، وقبالته قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات وقصر بيقلى محمد بك وقصور نوالى بك... على هذه القصور (٢٢٠٠٠) بيت للمسلمين، أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين، واثنتان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة... وبيوتهم من خمسة أو ستة طوابق... وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج وهناك أربع حارات للأورام و حارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج، والنصارى من التابعين لبلدان أوروبا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نسمة، ولاوجود لغجر الأورام، أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوروبا وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوروبا.

ويقول في موضع آخر: وطبقا لما ورد في كتب «الغزالي» فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر وهذا ما فيه الحاجة إلى مجلد خاص به».

أيضا عند ذكره لقرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودراهمها والدوانق

ويبدو أن أوليا جلبى استطاع الأطلاع على هذه السجلات حتى يتمكن من ذكر هذه الأرقام الكثيرة جدا والإحصاءات الدقيقة خاصة فيما يتعلق برواتب وطوائف الجند وما يتقاضونه كل شهر أو كل ثلاثة أشهر أيضا ما يتعلق بعوائد القرى والمدن والمحاكم وغيرها. فيقول أوليا جلبى عن هذه السجلات:

«كما وجد رئيس المترجمين، وأمين السجلات، وهناك قبة أخرى من الحجر تراكمت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخليفة عمر رضى الله عنه وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا».

وبعلاقة أوليا جلبى بالإدارة العثمانية في مصر، وهى علاقة كانت لاشك وطيدة حيث كان مقربا من الكتخدا وغيره، استطاع الأطلاع على هذه السجلات، وهذا الذى مكنته من رصد هذه الأرقام وهذه الإحصاءات.

يعد أوليا جلبى الرحالة الوحيد من بين كل من سبقوه بالرحلة إلى مصر الذى حرص على إظهار الجوانب المضيئة للحضارة الإسلامية فى مصر فى فترة الحكم العثمانى، وهى الفترة التى نعتها كثير من المؤرخين والكتاب بأنها فترة تخلف وظلام، فجاءت رحلة أوليا جلبى لتظهر هذه الجوانب وتبين ماكان فى مصر من مدارس ومساجد وكتاتيب، ودور للقراء، وتكايا، ومستشفيات ومحاكم، ومبرآت، كما بينت بالتفصيل صورة الحياة الاقتصادية فى مصر من خلال عرض ما كخان بها من حرف وصناعات ووكالات ودكاكين، ومستوى معيشة الناس وحالة الرغد والرفاهية التى شهدها أوليا جلبى فى أثناء سياحته التى قام بها فى مصر.

أبرز أوليا جلبى أهمية مصر، وعظمة مكانتها من خلال الخلفية التاريخية البسيطة التى بدأ بها رحلته والتى تناول فيها تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى الأرض وحتى الفتح العثمانى لها، ودعوة الأنبياء لها، واستقرارهم بها، وذكرها فى كتاب الله وفى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم.

جمعت رحلة أوليا جلبى بين ثمطين من الرحلات التى تمت لمصر، الأولى رحلات الأجانب الغير مسلمين والتى ركز أصحابها على إظهار صورة مصر الفرعونية والمسيحية من خلال آثارها، والنمط الآخر رحلات المسلمين أمثال بن جبير وابن بطوطة التى أظهرت بعض مظاهر الحضارة الإسلامية فى مصر من مدارس ومساجد وخانقاوات وغيرها، فجمع أوليا جلبى بين النمطين فلم يهمل آثار الفراعنة بمصر من أهرام ومقابر وغيرها.

تميز أوليا جلبى بالدقة فى الحصر، والاعتماد فى وصفه على مشاهداته الشخصية وليس على مشاهدات وآراء الغير والإتيان بإحصاءات غاية فى الأهمية لم يستطع غيره من السابقين الإتيان بها.

لم تقتصر سياحة أوليا جلبى ومشاهداته على القاهرة أو مصر القديمة والإسكندرية كسابقه ولكنه زار وشاهد أغلب - إن لم يكن كل - مدن وقصبات مصر آنذاك حتى مدينة أسوان بل وزار بلاد السودان والحبشة وهذا ما لم يقم به غيره من الرحالة السابقين عليه.

### عرض موجز لرحلة أوليا جلبى فى مصر والسودان والحبشة

وتتناول رحلة أوليا جلبى إلى مصر فى بدايته تاريخ مصر منذ بدء الخليقة وهبوط آدم إلى الأرض والدول التى تعاقبت على حكمها حتى الفتح العثمانى لها ونظم العثمانيين بها، ثم وصف للقاهرة أو مصر القديمة كما شاهدها أوليا جلبى حيث قام بتصوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية بها، ومنشآتها من منازل وجوامع ومساجد وتكايا وأسبلة ومدارس وكتاتيب وحمامات ووكالات وخلجان وترع وزراعات وحيوانات وأضرحة وغيرها، ثم وصف لبقية رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية ثم رشيد ودمياط ثم عودته للقاهرة واستئناف رحلته إلى بقية قصبات ومدن مصر إلى الصعيد فمزار الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وغيرها حتى وصل إلى أسوان وتوغل حتى بلاد السودان والحبشة ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

وقد جاءت رحلة أوليا جليبي في نحو ثلاثة وسبعين فصلا، بدأها بمقدمة حمد الله فيها وأثنى على رسوله الكريم، ثم تناول قصة خلق آدم وحواء وهبوطهما إلى الأرض وتنقلهما في الأرض حتى وصولها إلى مصر حيث صارت مستقرا لهما ولذريتهم.

ثم ذكر أوليا جليبي بداية دخوله مصر وإعجابه بها وبأبنيتها، والمصادر التي اطلع عليها وفي ذكر مصر فقال في تواضع جم يدل على رفعة نفسه وتدينه الشديد:

«دخلت أنا أوليا جليبي الحقيير سياح العالم ونديم آدم، مصر في السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف، فوجدت داخلها وخارجها وأعجبت له كل العجب ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود في ديار سواها، وبينما كنت أبحث عن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلا ما ليحده الحصر من التواريخ القيمة».

وفي خاتمة شرح أوليا جليبي خط سير رحلته التي كتب مسوداتها في مدينة أبريم بالحبشة وهي آخر ما وصل إليه في رحلته حيث يقول في ذلك «واسترحنا في مدينة أبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا في السفن وأرسلناها إلى جرجة ولقد كتبت مسودات رحلتي».

ثم عاد أوليا جليبي إلى مصر ولكنه سلك الضفة الغربية للنيل أثناء عودته حيث كان في ذهابه يسلك الضفة الشرقية وفي ذلك يقول:

«ومن مدينة أبريم ودعت خلاني وأحبابي وركبت السفينة في النيل إلى الجانب المواجه لأن في ذهابي رلى فونغستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية».

ومر أوليا جليبي بعدد من المدن والقصبات أثناء عودته حتى وصل مدينة «الواح الكبرى» بولاية الواحات وبها بلغ كتابه نهايته، ووضع أوليا جليبي خاتمته التي شرح فيها خط سير رحلته ومشاهداته وطريقة كتابته لهذا الكتاب فيقول:

«ولله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله ثنى عليه الشاء كله على أننا أقمنا في ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل

خرقة الدراويش ذات الألوان وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها فى عصر وإلى مصر الباشا وأتمنا كتابنا فى ظل خيرة ورعايته، وإن كان هذا الكتاب فى رأى العقلاء والحكماء لا يخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بألفاظ جذلة، والمرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو الغلط عنه... فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عاما ولكثرة سياحتى انزويت فى ركن العزلة، ولم يتيسر لى أن أتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حدث من الأحداث، ولم أقيد فى كتابى نهاية حدث بالذات ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمردى ألقىت إليه السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك جرأت على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول) وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المنشويات فى خاتمة الكتاب وذكرت هذا التاريخ.

كتبه أضعف الكتاب الحاج محمد المعروف بحافظ القرآن المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

### منهج أوليا جلى فى كتابة رحلته

استهل أوليا جلى رحلته بموجز عن تاريخ مصر منذ بدء الخليقة، واستقرار أبناء آدم من الأنبياء بها، وحكام مصر قبل الطوفان وبعده حتى الفتح الإسلامى لها فى خلافة عمر بن الخطاب، وتعاقب الدول الإسلامية على حكمها حتى الفتح العثمانى لها. وقد كان هذا الموجز التاريخى من أسباب عظمة هذا الكتاب، حيث جعله عملا ثقافيا متكاملًا يمتع قارئه، فهو يجمع بين تاريخ مصر وجغرافيتها منذ أقدم العصور وحتى عصر هذه الرحالة وهو بذلك يختلف عن أسلوب سابقه من الرحالة فى هذا المجال.

وأفاض أوليا جلبى فى ذكر الفتح العثمانى لمصر، ودواوين العثمانيين بها ورسومهم، ومواكبهم، وجندهم ورواتبهم وملابسهم، وفرقهم وذلك من خلال صفحات الكتاب.

### علاقة مصر والدولة العثمانية من خلال رحلة أوليا جلبى

من أهم مميزات هذا الكتاب هو توضيحه لموقف مصر من الدولة العثمانية قبل دخول العثمانيين إليها، ثم توضيح وإظهار الصورة المضيئة للعثمانيين فى ظل حكمهم مصر. أما بالنسبة للنقطة الأولى والمتعلقة بموقف مصر من الدولة العثمانية قبل الفتح العثمانى لها بيّن أوليا أن دخول العثمانيين مصر كان بناء على رغبة أهلها وبموافقاتهم ولم يدخلوها عنوة حيث يقول:

وبسبب ظلم الشركاسة وطغيانهم، قدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاد بعيدة، وإذا مضينا إلى العجم، وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لا ثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض، إليهم، فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة، وهتف كل من الشيخ أبو الجارحى، والشيخ مرزوق كفافى قائلا: تعال يا سليم تعال يا سليم وكان السلطان سليم فى مشته بأماسية مع وزراءه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا يونس باشا إننا سمعنا من قال يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة، فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حلسمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفاف بالمكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت أبوك وإذا ما دعوناك إلى مصر فاقدم هذا ماقلاه.

ويقول أوليا جلبى عن بشرىات فتح العثمانيين مصر:

«ومضى سليم إلى بورسة لزيارة أمير سلطان فقال السلام عليكم يا أهل القبور،

فسمع صوتا يقول: وعليكم السلام يا صاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمين وتردد هذا الصوت من القبر الشريف، فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور وفي الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم، لقد بشرت يامولاي بفتح مصر.

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف في ضريح أمير سلطان وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره وهناك جمع جميع علماء الترك، وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة، فطلب منهم أن يفتوه في فتح مصر، وكان الطواش سنان باشا الصدر الأعظم آنذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك، وتبينوا ما جاء فيها، وقالوا مادام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجود قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

وبعد ما ذكر أوليا جليبي في كتابه مضمون الفتوى قال:

فحمل سليم سند الفتوى وفي الحال بعث بائني عشر رسولا إلى السلطان الغوري فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغوري، فقرأ السلطان الغوري رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذي القدر وسبعين من أبنائه وأرستل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان، وفيها يقول: مادامت حيا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء في سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلا تعال إلى ميدانسي، وعندما تسلم سليم رسالة الغوري هذه استشاط غضبا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور وإذا ما قتل سفراء المسلمين، فقتل الغوري حلال، فانهض يامولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

وجهاز السلطان سليم جيشه وخاض معارك ضارية ونجح في هزيمة الغوري وضم بلاد الشام. ثم اتجه إلى مصر ودارت بينه وبين الجراكسة حروبا شرسة حتى مكثه الله في نهايتها من ضم مصر لحوزة العثمانيين.

وأما النقطة الثانية التي وضحها أوليا جليبي ألا وهي الصورة المضيئة للعثمانيين في

مصر فقد ظهرت منذ استقرار العثمانيين بها، فبعد أن مكّن الله السلطان سليم من فتح مصر ودانت له، يقول أوليا :

ويأذن من علماء مصر جميعا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان في جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن في ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحي والشيخ مرزوق كفافي وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خدام الحرمين الشريفين سليم خان ابن بايزيد أيد الله سلطنته إلى آخر الزمان. وبإذنهما الشريف سكّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر، ضارب النصر غرو النصر في البر والبحر السلطان سليم خان بن بايزيد خان عز نصره سنة ٩٢٢ هـ وبعد ذلك جمع سليم ذات يوم الديوان السلطان وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم في السن والرتبة، ووضع سليم يده في يد خير بك وأجلسه على سرير الخلافة ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليبي وريشة نفيسة، وعلى ظهر خلعة فاخرة من السمر، وحول خصره منطقة مرصعة تعلق فيها خنجر مرصع وحرص سليم على أن يلبسه كل ذلك بنفسه، ورفع يده بالدعاء وقال: لقد جعلتك ياخير بك وزيرا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام، فأنا لارغبة لى فى شئ من مصر، لقد ظفرت بلقب خدام الحرمين الشريفين وكفى.

ووقف جميع محاصيل مصر على النبى ﷺ فاشهدوا من الآن فصاعدا ياخير بك أنت مولى هذا الوقف فأحسن خدمته.

ثم وضع السلطان سليم قانونا تسيير عليه الإدارة فى مصر كان من أهم ما جاء فيه التالى :

جعل مائة من الأغوات بكوات الشراكسة، وأمر ألا يجتمع الديوان ثلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العطلة هى الجمعة والسبت والأربعاء، ويحضر قاضى العسكر الديوان خمسة أيام، ومن أجل الديوان فى كل يوم كيسان من دنانير. ويقدم ثلاثة آلاف صحن من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد وجعل سليم ذلك قانونا، ولشوايشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس

والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الإثمة والمؤذنين راتبا . . ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافا وفي دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء وذلك من المال السلطاني، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سماطهم، ييسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع. وجعل ذلك قانونا، ودامت هذه النعمة، وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطاني .

وهكذا يتبين مما سبق نبل وعظمة هدف العثمانيين من دخول مصر فحده السلطان سليم بأنه لخدمة الإسلام حيث جعل كل خيراتها وقفا لله تعالى .  
وشهد الناس فى ظل حكمه عطف ورعاية لامثيل لها حيث نراه يأمر كاشفى الأقاليم بعمل أسمطة صباحا ومساء لإطعاء الناس، ولجدية الأمر يأمر بأن تقرع الطبول لينبه جميع الجياع.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن مصر شهدت ازدهارا اقتصاديا فى ظل حكم العثمانيين كما يتبين لنا ذلك من الرحلة، وتبين ذلك أيضا من طبيعة النشاط الاقتصادى وكثرة الحرف والدكاكين والوكالات والصناعات .  
كما شهد الناس نوعا من الرغد والرفاهية فالمستشفيات تعمل مجانا والمبررات توزع طعامها ليلا ونهارا مجانا، والاحتفالات كثيرة ومتعددة مما يدل على نوع من الراحة والاستقرار وإن كان ذلك فى الفترة التى عاشها أوليا جلى فى مصر. إلا أنها كشف عن الكثير من إيجابيات الحكم العثماني فى مصر.

### تقويم رحلة أوليا جلى

فى أوليا جلى كثير من الصفات الجليلة أولها القدرة على تحمل المشاق والصبر عليها، وقد أوردنا جزءا يسيرا فى أمثلة سابقة من هذه المشاق، والرحلة بها غير هذه الأمثلة، عشرات الأمثلة .

ومن صفاته أيضا شجاعته، وإصراره على بلوغ هدفه وثقته بالله وإيمانه الشديد به سبحانه وتعالى:

مثال : أثناء عزمه زيارة فنجستان يقول :

«ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جياذكم سوف تهلك من الحر والجوع، ولاتأمنون عادية اللصوص من الزنوج وبسطوا إلينا الرجاء ألا غضى فقلت إن الخوف لا يدخلني مطلقا، لأن الله تعالى : (والحافظون لحدود الله)، وقد حفظت منذ أربعين عام، وقد ختمت القرآن الكريم في كل يوم جمعة منذ فجر شبابي، وبذلك كنت أختمه في كل عام ثمانية وأربعين مرة. وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع، وأنا لا أنثنى عن عزمي، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا، وأنت لاتحمل هدية، فأنا لا أرد جوابا، وماذا أصنع بالهدايا التي للملك فونجستان، وفي الموضع الذي يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتي الحاجة، ودعيت الله، ودعيت الله قائلا أن يسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك، فالحمد لله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقا لأرحل، وألححت فى الدعاء، فقالوا لاتنسنا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة.

ومن صفات أوليا جليبي أيضا الواضحة تماما فى رحلته تدينه الشديد، وغلبة الروح الصوفية عليه، ويظهر ذلك فى كثير من فقرات كتابه، وفى تناوله وذكره للأولياء خاصة، والمتصوفة. أيضا يظهر تدينه الشديد من كثرة استشاده بالآيات القرآنية وأحاديث النبي ﷺ.

### ما يؤخذ على أوليا جليبي فى رحلته

يلاحظ القارئ لكتاب أوليا جليبي مبالغته فى سرد بعض المشاهد والأحداث التي يرويها فى مواضع متعددة من كتابه فعلى سبيل المثال، عند وصفه للتمساح، والحكايات التي أوردها عنه ذكر عجيبة من العجائب قائلا:

ومن عجب أن هذا التماسح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاه وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابوا لأنفسهم الأمانة بالسوء يختبئ الواحد منهم فى الرمل، وقبل أن يجامع التماسح أنثاه وهى على ظهرها، يخرج من كمينه، ويطلق صيحة الية، فيجفل التماسح الذكر وي طرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاه تظل على ظهرها، لاتحرك ساكنا، فهى لاتستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة، وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الاتصال بأنتى التماسح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولاحياء .

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التماسح ألد من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة، ويقول إن الدم الأحمر يسيل من كل جماع بكر، وإذا ما جامع أنثى التماسح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع .

ثم يروى حكاية أخرى طويلة عن نفس الموضوع نقلا عن أحد الأشخاص، ثم يقول فى سبب جماع الناس للتماسيح :

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر حضورهم، ولكى يبرءوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء، من هذا الداء، والبعض ممن لايجامعون التماسيح يجامعون الجوارى الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهـن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منى وغيره .

ولم تكن هذه هى المرة الواحدة فقط التى يذكر فيها أوليا جلىبى ذلك عن التماسيح ولكنه عاد وذكرها فى مواضع أخرى، والحقيقة أن ذلك فيه نوع من المبالغة والاستفاضة فى موضوع ليس ذا أهمية . كما أنه مخالف للفطرة البشرية .

ومن المبالغات التى ذكرها أيضا تحت عنوان . . «لطيفة غريبة» :

«رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالموق أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم، وقد خنقوا بعض أسرارهم من النوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لاتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم، ويقولون أن ألد اللحم لحم البشر والشعابين والخنازير، كما يقولون أن إلية الخنزير وإلية البشر أذا ما يكون طعاما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق، ويعرفون ذلك حق العرفة أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدرت من ذلك أن لحم البشر لذيد.

ومن المبالغات والمنتاقضات أوليا جلى ما ذكره فى الفصل الثامن والخمسين قائلا «إن عدد المصابين بالرمد فى مصر مالا يعلمه إلا الله فى حين أنه لاوجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين إنه لاوجود فيها ليطار، ومرضاها كثير فى حين إنه لاوجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولايجد له جراحا، ورجالها كثير فى حين أنه لاوجود لحاكم يحكمهم، وما أكثر قضائتها فى حين أنه لا وجود لمن يقول الحق فيها، وما أكثر شهود الزور فيها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين إنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط، ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لاوجود لمحاسب ذى ضمير، وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على ألسنة الناس.

والعجيب فى مقولة أوليا جلى هذه أنها تتناقض بعض الشئ مع ما ذكره قبل ذلك فى رحلته، فبالنسبة للمرضى ذكر أن بها بيمارستانات وأنها تعالج المرضى مجانا، وعن قول الحق قال قبل ذلك أن مصر لايبضغ فيها الحق «وأن بمصر إحقاقا للحق ليس له من وجود»، وأن بها جراحين لعملية ختان البنات والصبيان، كما أن كلامه ذلك كلام مطلق فليس من المعقول أنه لايوجد واحد فقط يقول الحق أو واحد فقط يتكلم كلمة طيبة أو محاسب ذى ضمير، رغم أن أوليا جلى ذكر فى فضائل أهل مصر ومحاسنهم كثيرا من الأخلاق الحميدة، التى أعجب هو بها وذكرها فى كتابه، مثل وقوفهم بجوار بعضهم البعض فى حالات الوفاة، والختان وغيرها من المناسبات الاجتماعية.

## خاتمة

وخاتمة القول فى ذلك :

- ١- قدمت إلى المكتبة العربية شخصية رائدة فى مجال أدب الرحلات هو أوليا جلى، للمرة الأولى، ونشر هذا البحث معناه اهتمام الباحثين العرب به .
- ٢- أوليا جلى: عالم ورحالة وأديب وصحفى وناقد. هذه نتيجة خرجت بها من دراسته . والمتداول عنه إنه مجرد رحالة .
- ٣- كما أنه رجل إدارى .
- ٤- أوليا جلى، مثل للثقافة الإسلامية بفروعها الثلاثة الأساس: العربية والفارسية والتركية العثمانية .
- ٥- قدمت هذا البحث ليكون عوناً على دراسة رحالة أوليا جلى فى مصر التى تبلغ فى أصلها التركى ألف صفحة .
- ٦- الثقة فى المؤرخ العثمانى الذى قدم لنا إحصائيات فاقت ما قدمه عظيم أدب الرحلات ابن بطوطة .
- ٧- دراسة أوليا جلى، تؤدى بالضرورة، إلى الكشف عن عصر التنوير الإسلام فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى .

والله الموفق

محمد حرب

١٠

الحمد لله وحده وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده وحييه ورسوله، وبعد..

حمداً بلا حدّ وثناءً بلا عدّ، على الخلاق الباقي رب العباد، الذي أوجد كل ما في هذا الوجود، وأتم خلق كل ما في السموات وما في الأرض والليل والنهار مخاطباً إياها بقوله كن: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ تُمُّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، إن الله على كل شيء قدير.

خالق بلا نصب إله عظيم، خالق الأرض رب العرش العظيم. ذلك الصانع المصور القيوم، اقتضت حكمته الأزلية وحسب علمه أن يأتي بحبيبه المصطفى إلى أديم هذه الأرض، وأن يُزيّن الأرض ببني آدم، وكما يزين الأرض ببني آدم، خلق من التراب بيد قدرته صفى البشر آدم، ونفخ فيه الروح من روحه، وجعله الكامل المكمل النبي وجعله حقيقةً بجواره وأدخله جنة المأوى، وألف بينه وبين جميع الملائكة، ومتمّعه بالخور والغلمان فشهد جمال الباري دونما واسطة وعلمه كلمات وكان له عند الله حسن القبول، وسجد لآدم جميع الملائكة المقربين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعلى حد قول المفسرين إنه سكن أرض الجنة العالية عامّاً واحداً وعاش مع أمنا حواء أطيب العيش وفي نهاية الأمر كان لا يُسئل عما يفعل، وبناء على مشيئة الله الأزلية نهاه بتلك الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وبعد النص القاطع صدر الأمر القاطع لآدم فما ذاق آدم حبة من قمح سنين عدداً، ولكن بما أن العصيان مركز في طبع الإنسان نسي ما أمره الله به ويبيعاز من أمنا حواء أكل حبة من قمح، فطرد آدم من مقره إلى الأرض في جزيرة (سرنديل) من أرض الهند، أما أمنا حواء فاستبعدت إلى جدة، وبناء على قول المفسرين إن آدم وأمنا حواء بعد هبوطهما كانا يسبحان في الأرض ويتجولان عريانين وعلى رأسهما التاج، وقد بلغ منهما الجوع مبلغه ومست حاجتهما إلى حبة قمح وهما يهيئان على وجهيهما.

- ٢ -

وبعد ذلك أهدت عصافير الجنة شعرة من لحية آدم إلى أمنا حواء، وأتت من شعر غدائر حواء لآدم عدة شعرات كالعنبر، فكانت طيور عصافير الجنة سبب لقائهما في عرفات، فتم التقاء آدم بحواء في عرفات، ولذلك سمي الجبل بـ «عرفات» وهو في اللغة العربية جبل (عرفه)، وباجتماعهما تم لهما الصفاء، ولذلك كان دعاؤهما لعصفور الجنة، فقال العصفور: حيال خدمتي لكما، لى عندكما رجاء، بما أن لحمى غاية فى لذة طعمه، فإن كل الأفاعي والدوبيات كثيرة الأرجل أعدائي، فلا أجد الذرية، لى رجاء أبسطه لديكما هو أن يكون عشى فى داركما حيثما كتما، يا آدم أعطنى من لحيتك شعرات، وعلى حواء كذلك أن تقدم عدة شعرات تمتزج بالطين وأصنع منها عشا فى داركما ويسعد عيشى فى ظلكما وتكون لى ذرية، فوقع رجاؤه موقع القبول، فقدم آدم وحواء الشعرات إلى عصفور الجنة فخمرها فى الطين وجعل العصفور عشه بناء صغيراً فى دار آدم، وبسبب ذلك تعيش طيور عصافير الجنة فى البيوت إلى يومنا هذا، والبيت الذى بناه آدم وحواء فى أسفل جبل عرفات. ويسمون مطبخ آدم البيت الشريف، وهو الآن موضع يُزار، وقد عمر هذا البناء نوح - عليه السلام - بعد الطوفان، وهو مزار للحجيج.

وقد حملت أمنا حواء شتاءً فى عرفة، وقد أورد المؤرخون كثيراً من الروايات الأخرى، بينما كان آدم فى عالم التجرد احتلم فى منامه، فوقع منية على الأرض، وبعد عام ظهر منه (شيث) وأصبح مثل آدم مخلوق من التراب.

وفى قول أن وسط آدم انقبض فسقط منية على الأرض فخلق الله عشاباً وانتشر هذا العشب فى البنغال وإيرجيش وداموندو جبل الرهبان فى بروسة وجبل البرز، إنه عشب من الجن منهم رجال ونساء وله شعر ولحية وهما من غريب خلق الخالق، وفى لسان العرب (بيروح الصنم وعبد السلام)، وبعض الأطباء يجعلون هذا العشب فى المعاجين لتكون أدوية، إنه عشب مقو إلى حد بعيد.

ولما هبط آدم إلى الأرض نبت هذا العشب من منبته، وإن قيل إنه ليس (شيث)، والقول الأرجح أنه هو، لأن شيث من آدم وحواء كما أن (شيث) لم يشترك مع بنت فى الرحم لأن آدم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، باسطة الرجاء إلى البارئ تعالى، طالباً لشيث حورية، وسرعان ما جاء جبريل الأمين بحورية لآدم، وقدمت زوجة (لشيث)، وفى ذلك العصر كان عقد النكاح كلمة (لا إله إلا الله آدم صفى الله)، ثم مضى (شيث) مع أنيسته إلى أرض حوران بالشام.

- ٣ -

وهناك مكث مدة من الزمن وهذه الحورية يخطئون فى تسميتها حوران، وهذا ما سلف ذكره فى مجلد سابق، وكان مقرهما الأول سرنديب والمقر الثانى جبل عرفات، أما مقرهما الثالث فمكة التى بلغاها بإذن من الله تعالى - واستوطناها.

ومن أجل ألفة وأنس آدم أنزل الله - تعالى - قصرًا من جنة المأوى إلى مكة واسم هذا القصر البيت المعمور، وفى رواية أنه كان من الياقوت الأحمر، وفى أخرى أنه كان من اللؤلؤ الأبيض، وبعد الطوفان بينما كان الله يرفعه إلى الجنة، انفصل عنه الحجر الأسود، وقيل إنه اسودّ من ماء الطوفان، وقيل فى إحدى الروايات، أنه اسودّ من مسح العُصاة وجوههم عليه، ثم فرض رب العزة على آدم أن يطوف بالبيت المعمور هذا، وقد علّم جبريل الأمين آدم العبادة فيه ودام على تلك الحال طويلاً وهو يسكن مكة.

ويذهب المؤرخون إلى أن آدم كان له أربعون ألفاً من الولد وكان يطوف فى كل عام أبنائه حول البيت المعمور ويجعلهم يؤدون مناسك الحج، ولكن تأذت نفسه كثيراً لأن مكة أرض غير ذات زرع، فمضى، إلى أرض مصر مؤتمراً بأمر الحق - تعالى - واستوطن شاطئ النيل، فمصر هى وطنه الرابع فاشتغل بالزراعة وتحصلت له وفرة من الغلال بحيث كان من كل حبة قمح مائة سنبله وفى كل سنبله مائة حبة. وفى البداية دعى آدم مع كل أبنائه لمصر، ودعا لهم بلسان عبرى إذ إن آدم حين هبوطه من الجنة نسى لغته العربية التى كان يتحدث بها فى الجنة بسبب عصيانه، فعلمه جبريل الأمين كلمات

عبرية، أما دعاؤه لمصر والذي أخذته عن التواريخ القبطية فسوف نكتبه فى مجموعتنا تلك .

دعاء سيدنا آدم - عليه السلام - صلى الله فى حق مصر باللغة العبرية:

اللهم احفظ إيمانى من الشيطان ونجنى، ونجنى ولتكن جميع الملائكة فى خدمتى، واعطنى القمح لأصنع الخبز. اللهم اجعل هذا البلد عامراً لأبنائى بعد مماتى .  
قال سيدنا آدم هذا الدعاء فى حق مصر بلسان عبرى على وزن مفتعلن مفتعلن، ولقد أصبحت جميع الديار معمورة أبداً منذ ذلك اليوم وحتى الآن. والمدينة الواحدة نصف الدنيا، وأصبحت مصر معمورة منذ أول الخلق وسوف نبين ولاية مصر وملوكها منذ هبوط آدم وكيفية حكمهم وتصريفهم لأمرها حتى يومنا هذا ومدة حكمهم وأعمارهم .

\*\*\*

## ذكر أوصاف أقدم البلاد وأعظم المدن

### مصر المحروسة

#### نادرة الزمان أم الدنيا: القاهرة المعزية،

#### حفظها الله من الآفات السماوية والأرضية

دخلت أنا أوليا الحقير سباح العالم، ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف فوجدت داخلها وخارجها ما عجبت له كل العجب، ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عن أقم تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلى ما لا يحده الحصر من التواريخ القيمة وهذا بيان بعناوينها:

#### - أسماء تواريخ مصر وغيرها من الكتب النادرة:

أولاً: تاريخ المقريزى: وهو كتاب عظيم القيمة مشهود له بصحته التاريخية وهو مستمد من كتب قبطية وسريانية ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية تلقاه الخاص العام بقبول حسن.

وتاريخ ابن جرير الطبرى، صاحب التفسير القديم: وهو تاريخ نفيس.

تاريخ الشيخ الإمام السيوطى: وهو تاريخ له ما له من عظيم قيمته.

وتاريخ صايبه وكتاب فتوحات مصر لابن عبد الحلیم.

وكتاب فضائل مصر لابن عبد الكندى.

وكتاب ابن زولاق.

وكتاب خطط القضاء.

وكتاب إيقاض المتفضل وهو مختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب مباحج الفكر ومناهج العبر.

وكتاب عوان عنوان السير محمد بن عبد الملك الهمدانى.

وتاريخ الصحابة.

وتاريخ التجريد فى الصحابة للذهبي.

وكتاب المختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى .

وكتاب الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر .

وكتاب الرجال العشرة للحسينى .

وكتاب طبقات الحفاظ للذهبى، وكتاب طبقات الشافعية لابن السبكي، وكتاب طبقات المالكية لابن ترخون<sup>(١)</sup>، وكتاب طبقات الحنفية لابن دقماق، وكتاب مرآة الزمان لابن الجوزى، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير، وكتاب إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، وكتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد لكamal الإدفوى، وكتاب السكردان لابن حجلة، وكتاب سجع النهر نيل فى أوصاف نهر النيل، وكتاب ثمار الأوراق لابن حجة، وتواريخ الشهاب جليبي ترجمة لكتاب «حسن المحاضرة» للشيخ السيوطى، وعلاوة على تلك الكتب السالف ذكرها، قرأت كثرة من الكتب والدواوين فى مصر وأدرجت فى رحلتى هذه ما تنبغى معرفته من قواطع الأدلة وأوصاف الرواة والحوادث، وقسمت تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى يومنا هذا، وتجرات على كتابة هذا «وبه نستعين وبالله التوفيق».

\*\*\*

(١) فى الاصل: .